

الْجَاهِلِيَّةُ

عناصر الموضوع

| | |
|-----|-------------------------------|
| ٣١٨ | مفهوم الجahلية |
| ٣١٩ | الجاهلية في الاستعمال القرآني |
| ٣٢٠ | الألفاظ ذات الصلة |
| ٣٢١ | الجهل والطبيعة الإنسانية |
| ٣٢٢ | تنزيه الرسل عن أخلاق الجahلين |
| ٣٢٤ | أنواع الجahلية |
| ٣٢٨ | من صور الجahالة |
| ٣٣٠ | علاج الجahالة |
| ٣٣٣ | التعامل مع الجahلين |

مفهوم الجاهلية

أولاً: المعنى اللغوي:

أصل مادة (جهل) تدل على معنين: أحدهما: خلاف العلم، والأخر: الخفة وخلاف الطمأنينة^(١).

والجاهلية في اللغة: «يعبر بها عن التناهي في الجهل»^(٢)، «وأصل الجهل من قولهم: استجهلت الريح الغصن، إذا حرّكته، فكان الجهل إنما هو حركة تخرج عن الحق والعلم»^(٣).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

الجاهلية في الاصطلاح: «هي عادة القوم قبل الإسلام»^(٤)؛ «لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشريائع»^(٥)، وقد أطلق عليها القرآن أحياناً لفظ: (الجاهلية الأولى)، «ويجوز أن تكون الجاهلية الأولى - جاهلية الكفر قبل الإسلام. والجاهلية الأخرى - جاهلية الفسق والفساد في الإسلام»^(٦).

فيكون بهذا لفظ الجاهلية ليس معناه شيئاً واحداً وإنما هو مجموعة العادات والتقاليد التي كان يتسم بها الناس قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، مما جاء الإسلام يابطئها. وأحسب أن لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن، وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم؛ ولذلك يذكره القرآن في مقامات الدم في نحو قوله: ﴿أَفَحَمْكُمْ بِمَا لَمْ يَعْلَمُوا﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿وَلَا تَرْجِعُنَّ تَبَّعَ الْجَاهِلِيَّةَ الْأُولَئِكَ﴾ [الأحزاب: ٣٣]^(٧).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

الجهل في اللغة ضد العلم، وفي الاصطلاح وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس / ٤٩٠.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحاحين، ابن الجوزي / ٢ / ٥٩٧.

(٣) نظم الدرر، البقاعي / ٥ / ٢٢٠.

(٤) كشف المشكل، ابن الجوزي / ٢ / ٣٧٥.

(٥) التحرير والتتوير، ابن عاشور / ٢٢ / ١٣.

(٦) الكشاف، الزمخشري / ٣ / ٥٣٧.

(٧) التحرير والتتوير، ابن عاشور / ٤ / ١٣٦.

الجاهلية في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ج هـ) في القرآن (٢٤) مرة^(١).
والصيغة التي وردت هي:

| المثال | عدد المرات | الصيغة |
|--|------------|---------------|
| ﴿وَلَكُنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] | ٥ | الفعل المضارع |
| ﴿أَفَخُكُّمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَسْعَونَ﴾ [المائدة: ٥٠] | ٤ | مصدر صناعي |
| ﴿يَنْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَّةً مِّنَ التَّعْقُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] | ١٠ | اسم الفاعل |
| ﴿إِنَّا أَنْوَبْنَا عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَسْوَءَهُ بِجَهَلَةِ﴾ [النساء: ١٧] | ٤ | مصدر سماعي |
| ﴿وَحَلَّهَا إِلَى نَسْنَنْ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] | ١ | صيغة مبالغة |

وجاءت الجاهلية في القرآن بمعناها في اللغة وهي من الجهل، والجهل في اللغة على ثلاثة أضرب^(٢):

الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً، كمن يترك الصلاة متعمداً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَّحُوا بَقَرَّةً قَالُوا أَنَّظِدُنَا هُنَّا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِيَّاتِ﴾ [البقرة: ٦٧].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٨٤.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإسلام:

الإسلام لغة:

الاستسلام، والانقياد^(١).

الإسلام اصطلاحاً:

الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله^(٢).

الصلة بين الجاهلية والإسلام:

الجاهلية هي مجموعة العادات والتقاليد التي كان يتسم بها الناس قبل بirth النبي صلى الله عليه وسلم، مما جاء الإسلام يابطالها، فالإسلام مرحلة مهمة في إبطال مجموعة العادات والتقاليد المخالفة التي انتشرت في الجاهلية.

٢ الشرك:

الشرك لغة:

ما خرّد من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر، أي: جعل له شريكاً في ملکه تعالى الله عن ذلك)^(٣)، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحاً:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه^(٤).

الصلة بين الجاهلية والشرك:

من أخطر الأمور المتفشية في الجاهلية المتعلقة بالعقيدة هو الشرك، والذي كان للشياطين العلاقة الوطيدة فيه، روى الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهمما قال: (لما افتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ونَّ إيليس رنة اجتمعت إليه جنوده، فقال: ایشوا أن تردوا أمّة محمد على الشرك بعد يومكم هذا، ولكن افتونهم في دينهم، وأفسحوا لهم النوح)^(٥).

(١) انظر: الصداح، الجوهرى، ٥ / ١٩٥٢، مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣ / ٩٠.

(٢) انظر: ثلاثة الأصول وشروط الصلاة والقواعد الأربع، محمد بن عبد الوهاب، ص ١٤.

(٣) تاج العروس، الزبيدي، ٢٧ / ٢٢٤.

(٤) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ١٢٣١٨، رقم ١١/١٢، ر حسن الألباني في السلسلة الصحيحة،

والجهل، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيَّتِنَّا أَن يَحْمِلُنَا وَأَشْفَقْنَاهُ مِنْهَا وَحَمَلَهَا إِنَّمَا إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم دلّه ربّه سبحانه على ما يرفع به عن نفسه ذلك الظلم والجهل، فقال لرفع الظلم: ﴿أَعِدُّ لَهُ أَهْوَأَ قَرْبٌ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

وقال سبحانه لرفع الجهل: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْ فِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال: ﴿فَسَتَّلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كَثُرُ لَا تَخْتَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وعن أول خروج الإنسان للدنيا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَقْلِمُونَ شَيْئًا﴾ ثم أعطاه الله ما يرفع به عن نفسه ذلك الجهل الفطري فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعَدَةَ لَكُمْ شَكُورٌ﴾ [النحل: ٧٨].

بهذا نعلم أن الجهل من طبيعة الإنسان البشري، لكنه مأمور شرعاً برفع ذلك الجهل عن نفسه؛ ليس من تبعات الأخطاء التي يرتكبها بسبب جهله، خاصة إن كان في حاضرة علم وعلماء.

الجهل والطبيعة الإنسانية

قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَوِيقًا﴾ [النساء: ٢٨].

قال طاووس ومقاتل وغيرهما: «لا يصبر عن النساء»، وقال الحسن: «هو خلقه من ماء مهين»، وقال الزجاج: «ضعف عزمه عن قهر الهوى».

قال ابن القيم: «والصواب أن ضعفه يعم هذا كلّه، وضعفه أعظم من هذا وأكثر؛ فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والأفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدوة»^(١).

لقد فطر الله الإنسان على صفات النقص كتقدير كوني، لكنه سبحانه أرشده إلى ما يزييل به نقصه ذلك أو بعضه، فمثلاً: طبع الله الإنسان على الخطأ، كما قال صلى الله عليه وسلم: (كلّ بني آدم خطاء، وخير الخطائين التّوابون)^(٢)، فانظر كيف دلّه على ما يمحوه به أخطاء!

وكذلك طبع الإنسان على الظلم

٧/ ١٣٧٣، رقم ٣٤٦٧.

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ١٠٨.

(٢) آخر جه الترمذى في سنته، أبواب صفة القيامة، باب رقم ٤٩، ٦٥٩/٤، رقم ٢٤٩٩، وابن ماجه في سنته، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٠، رقم ٤٢٥١. وحسنه الألبانى في صحيح الجامع، ٨٣١/٢، رقم ٤٥١٥.

تنزيه الرسل عن أخلاق الجاهلين

الإيمان بآيات الله تعالى ركن من أركان الإيمان بالله تعالى، لا يصح إيمان عبد بدونه.

قال الله تعالى: ﴿مَأْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ مَأْمَنٍ بِاللَّهِ وَمَا تَرَكُوكُمْ وَكُلُّهُمْ وَرَسُولُهُ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رَسُولِهِ وَقَاتُلُوا سَعْيًا وَأَطْعَنُوا عَفْرَانَكُمْ رَبَّنَا وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُنَّ الَّرِّجُلُ مَنْ عَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلِئَكَةَ وَالْكَتَبَ وَالنَّبِيَّنَ وَالثَّيْعَنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولا شك أن الأنبياء والرسل هم المبلغون عن الله تعالى دينه ورسالته؛ لذا فلم يرسل الله تعالى لتلك المهمة إلا الخالص من عباده.

قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

أي: «يختار ويجتبي من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً يكونون أذكي ذلك النوع، وأجمعوا لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا صفة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم ليس جاهلاً بحقائق الأشياء! أو يعلم شيئاً دون شيء! وإنما المصطفى لهم السميع

البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ^(١).

وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة ثمانية عشر نبياً ورسولاً. قال سبحانه له عليه صلى الله عليه وسلم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَتَيْتَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ وَالْبُيُّونَ فَإِن يَكْفُرُوا بِهَا هُنُّ لَأَنَّهُمْ فَقَدْ وَكَلَّا إِلَيْهَا قَوْمًا لَّيَشْوَأُوهَا يَكْفِرُونَ﴾ [٦٩] أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمْ دَهْنَهُمْ أَفَتَدِهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَحْرَارًا إِنَّهُمْ هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠، ٨٩].

ولما أمر موسى عليه السلام قومه أن يذبحوا بقرة، كان جوابهم: ﴿قَالُوا أَنَّهُنَّا مُهْرُوذُونَ﴾! فكان جوابه عليه السلام أن: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]: «تبُرُّ وتترُّ عن الهرء؛ لأنه لا يليق بالعقلاء الأفضل، فإنه أخص من المزح؛ لأن في الهرء مزحة مع استخفاف واحتقار للممزوح معه، على أن المزح لا يليق في المجتمع العامة والخطابة، على أنه لا يليق بمقام الرسول؛ ولذا تبرأ منه موسى بأن نفي أن يكون من الجاهلين، كناية عن نفي المزح بنفي ملزومه، وبالغ في التتره بقوله:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٤٦.

هنا بعض الآيات التي تدل على ذلك:
فهذا نوح ويهود صالح وشعيب عليهم
السلام يقول كل منهم لقومه: ﴿تَقُولُونَ أَعْبَدُوا
اللَّهَ مَالَكُمْ مِنَ الْأَيْدِيْغَرِيْهِ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فتوحيد الله في العبادة هو أعظم العلم،
والشرك به سبحانه أعظم الجهل.

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه:
﴿وَتَقُولُونَ أَسْتَغْفِرُ رَبِّكُمْ شَدَّدُوا إِلَيْهِ يَرْسِلُ
الشَّكَاهَةَ عَلَيْكُمْ مَذْرَاكَ وَتَزَدَّكُمْ فُؤَادَكُمْ
فَوْرِكُمْ وَلَا تَنْزَلُوا بَغْرِيْبِيْنَ﴾ [هود: ٥٢].

وكما سيأتي معنا أن كل من عصى الله
 فهو جاهم، وكل من أطاعه فهو عالم، وهذا
الاستغفار الذي أمرهم به هو من أعظم العلم
الذي يهدم جهل المعصية، وكلما كان العبد
صادقاً في توبته واستغفاره كان أكثر علمًا
بالله تعالى وبعظيم قدره.

بهذا نعلم مدى بعد أنبياء الله ورسله
عليهم الصلاة والسلام عن أخلاق الجاهلين
وأعمالهم وصفاتهم. ولله الحمد.

﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ أي: منه؛ لأن العياذ بالله أبلغ
كلمات النفي، فإن المرء لا يعوذ بالله إلا إذا
أراد التغلب على أمر عظيم لا يغلبه إلا الله
تعالى^(١).

إذن فهم عليهم الصلاة والسلام متزهون
معصومون عن الواقع في أعمال الجاهلين.
وما بعث الله أنبياءه عليهم الصلاة
والسلام إلا ليهوا أقوامهم وأمهم عن
أعمال الجاهلين، فنبينا عليه الصلاة والسلام
قرأ على قومه لوم الدين ﴿يَطْلُوْكُ بِاللَّهِ غَيْرَ
الْحَقِيقَةِ الْمُكَهِّلَةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وبلغ أمته نكير الله على الحاكمين
بالجاهلية إذ قال: ﴿أَفَحَمَّمُوكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَسْعُونَ وَمَنْ
أَحْسَنَ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ﴾ [المائدة: ٦].

[٥٠]
وتلا عليه الصلاة والسلام على نساء
ونساء المؤمنين: ﴿وَلَا تَرْجِعْنَ
الْجَاهِلِيَّةَ الْأُولَئِكَ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وكانت أقواله وأفعاله صلى الله عليه
 وسلم تنهى عن حمية الجاهلية، وبيّنت هذه
 الآية أنها في قلوب الكافرين لا المؤمنين
 بالله: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ
 الْحَمِيمَةَ حَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

بل إن المتأمل في سيرتهم عليهم الصلاة
والسلام، يجد - بلا عناء - أنهم دعاة إلى ضد
الجهل والجاهلية والجهالة، ولنستعرض

(١) التحرير والتווير، ابن عاشور ١ / ٥٤٨.

أنواع الجاهلية

تحدث القرآن عن أنواع الجاهلية،
وسوف نبيّن ذلك فيما يأتي:
أولاً: الجاهلية العقدية:

وهذه أخطر أنواع الجاهلية؛ لأنها تمس
دين المسلم وعقيدته -والعياذ بالله-.
ومن أدلة هذه الجاهلية العقدية:

أولاً: قوله جل في علاه: «قُلْ أَغْيَرْتَ اللَّهَ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيْمَانَ الْجَاهِلِينَ» [الزمر: ٦٤].

و«إنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف
الإله بكونه خالقاً للأشياء، ويكونه مالكاً
لمقاييس السموات والأرض، وظاهر كون
هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع،
ومن أغرض عن عبادة الإله الموصوف
بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل
بعبادة هذه الأجسام الخسيسة؛ فقد بلغ في
الجهل مبلغاً لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب
قال: «أَيْمَانَ الْجَاهِلِينَ» ولا شك أن وصفهم
بهذا الأمر لائق بهذا الموضع»^(١).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: «وَجَنَوْزَا
يَبْقَى إِشْرَكُ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ
عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمْسُوَنَا أَجْعَلْنَا إِنَّا إِنَّا
كَمَا لَمْ يَأْتِهِمْ فَالْإِنْكَمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ



مَوْلَانَهُمْ مُتَبَرِّغُهُمْ فِيهِ وَيَنْطَلِعُهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»
[الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

(١) مفاتيح الغيب، الرازمي، ٢٧ / ٤٧١.

ثانياً: قول الحق سبحانه: «أَفَخَلَمُ
الْجَاهِلَةَ يَعْوَنُ وَمَنْ أَحَسَنَ مِنَ اللَّهِ حَكْمًا لِيَقُولُو
رُوْقَنُونَ» [المائدة: ٥٠].

قال ابن كثير رحمة الله في الكلام عن
هذه الآية: «ينكر تعالى على من خرج
عن حكم الله المحكم المشتمل على
كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما
سواء من الآراء والأهواء والاصطلاحات،
التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة
الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به
من الضلالات والجهالات، مما يضعونها
بارائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التمار من
السياسات الملكية الماخوذة عن ملوكهم
جنكيزان، الذي وضع لهم اليساق:
وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام
قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية
والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير
من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواء،
فصارت في بنية شرعاً متبعاً، يقدّمونها
على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى
الله عليه وسلم، ومن فعل ذلك منهم فهو
كافر يجب قتاله؛ حتى يرجع إلى حكم الله
ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يحكم
سواء في قليل ولا كثير»^(٢).

فالحكم من أعظم خصائص الوهية
الرب سبحانه وتعالى، كما قال تعالى:

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ٣ / ١٣١.

شاهدوا قوماً يعكفون على عبادة أصنامهم جهلوا وارتدوا وقال الموسى: اجعل لنا إلها كمالاً لهم آلهة! ولا شك أن القوم لما شاهدوا المعجزات الباهرة التي أظهرها الله تعالى لموسى على فرعون، ثم شاهدوا أنه تعالى أهلك فرعون وجنوده، وشخصبني إسرائيل بأنواع السلامة والكرامة، ثم إنهم بعد هذه المواقف والمقامات يذكرون هذا الكلام الفاسد الباطل؛ كانوا في نهاية الجهل وغاية الخلاف»!!^(٢).

وقد قال لهم موسى عليه السلام بعد بيانه جهلهم - محذراً لهم عاقبة أولئك العاكفين على عبادة غير الله تعالى -: «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ مُّنْدَرٌ مَا تَمَّ فِيهِ وَنَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ثم مبيناً بعض نعم الله عليهم: «قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَغْيَيْتُكُمْ إِلَهًا وَهُوَ قَضَى لَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَإِذَا أَجْيَنَتُكُمْ مِّنْ مَّا إِلَّا فَرَعَوْنَ يَسْوُمُونَكُمْ سَوْءَ الْعَدَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَّهٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ» [الأعراف: ١٤٠-١٤١] أي: فكيف بعد كل هذه النعم تريدون عبادة غيره؟! ما هذا إلا من أعظم أدلة جهلكم بقدر خالقكم ومنجيكم سبحانه وتعالى!

﴿أَلَا لَهُ الْفَلْقُ وَالْأَنْبَرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

[الأعراف: ٥٤].

فلا يجوز لأحد سواء أن يحكم في الناس بغير حكمه سبحانه، ولا يجوز لمسلم أن ينصاع لأحد يريد أن يحكمه بغير حكم الله تعالى، وقد حصر الله الحكم له سبحانه فقال في ثلاث آيات من القرآن: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» [الأنعام: ٥٧]، [يوسف: ٤٠]، [يوسف: ٦٧].

ثالثاً: قول الله تعالى: «وَجَهَوْنَاتٍ يَبْقَى إِتَّرَهُ يَلِ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْرَيْ يَعْكُنُونَ عَلَى أَصْنَافِهِ لَهُمْ قَالُوا يَمْوَسَ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَمْنَهُمْ إِلَهٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨].

أي: «إنكم أيها القوم قوم تجهلون عظمة الله وواجب حقه عليكم، ولا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيء سوى الله الذي له ملك السموات والأرض»^(١).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أنواع نعمه علىبني إسرائيل، بأن أهلك عدوهم وأورنهم أرضهم وديارهم، أتبع ذلك بالنعم العظمى: وهي أن جاوز بهم البحر مع السلامة، ولما بين تعالى في سائر السور كيف سيرهم في البحر مع السلامة، وذلك بأن فلق البحر عند ضرب موسى البحر بالعصا، وجعله ييسأ؛ بين أن بنى إسرائيل لما

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٤ / ٣٤٩.

(١) جامع البيان. للطبرى ١٣ / ٨٠.

ثانيًا: الجاهلية السلوكية:

وهذه الجاهلية السلوكية دون تلك العقدية، لكنها قد تصل ب أصحابها إلى الكفر بالله تعالى عيادةً بالله إذا عملها مستحلاً لها، بل حتى لو لم يعلمها لكنه اعتقاد حلها بعد أن حرمها الله تعالى.

ولهذا النوع من الجاهلية أمثلة في القرآن الكريم، نذكر هنا بعضها لتدل على ما سواها، فمن ذلك:

أولاً: قول النبي الله يوسف عليه السلام حين دعته امرأة العزيز والنسوة من ورائها **﴿فَالَّرَبِّ رَبِّ السَّاجِنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مَا يَدْعُونَ فِي إِلَيْهِ وَقَدْ أَنْهَى أَنَّهُنَّ أَنْتُمْ قَمْ بِجَهَنَّمَ﴾** [يوسف: ٢٣].

«فَإِنْ قُلْتَ: نَزُولُ السِّجْنِ مَشْقَةٌ عَلَى النَّفْسِ شَدِيدَةٌ، وَمَا دَعَوْنَاهُ إِلَيْهِ لَذَّةٌ عَظِيمَةٌ، فَكَيْفَ كَانَتِ الْمَشْقَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنِ اللَّذَّةِ؟

قلت: كانت أحب إلىه وأثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله، وفي قبح المعصية، وفي عاقبة كل واحدة منها، لا نظراً في مشتهى النفس ومكرورها» **(١)**.

وقوله: **﴿وَأَنْتُمْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾** أي: «من الذين لا يعلمون بما يعلمون؛ لأنَّ من لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء.

أو من السفهاء؛ لأنَّ الحكيم لا يفعل

(٢).

والتعبير «قوله: **﴿وَأَنْتُمْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾**» أبلغ من قول: **«وَأَنْتَ جَاهِلٌ»**^(٣).

وفي قوله عليه السلام: **﴿وَلَا تَنْصِرْ فَعَنِي كَيْدَهُنَّ أَنْتُمْ إِلَيْهِنَّ ...﴾** دلالةً على أن أحداً لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله^(٤).

ثانياً: وقال لوط عليه السلام لقومه: **﴿أَيُّنْكُمْ لَأَتَأْتُنَّ الرِّجَالَ شَهَوَةً مِنْ دُونِ النَّسَاءِ إِلَّا أَنْتُمْ قَمْ بِجَهَنَّمَ﴾** [النحل: ٥٥].

أي: «تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة مع علمكم بذلك! أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل السفاهة والمجازة التي كانوا عليها»^(٥).

إن « مجرد الكشف عن هذه الفاحشة يكفي لإبراز شذوذها وغرابتها لمؤلف البشرية، ولمؤلف الفطرة جميعاً! ثم دمغهم بالجهل بمعنى: الجهل بمعنى فقدان العلم، والجهل بمعنى السفة والحمق، وكلا المعنيين متتحقق في هذا الانحراف البغيض؛ فالذي لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء، ولا يعلم شيئاً أصلاً! والذي يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه أحمق معتدي على جميع الحقوق»^(٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور / ٧ / ٢٦٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي / ٩ / ١٨٥.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي / ٢٤ / ٥٦٢.

(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب / ٥ / ٢٦٤٧.

(١) الكشاف، الزمخشري / ٢ / ٤٦٧.

أحدهما: أن المراد من كان في زمان نوح، والجاهلية الأخرى من كان بعده. وثانيهما: أن هذه ليست أولى تقتضي أخرى؛ بل معناه تبرج الجاهلية القديمة، كقول القائل:

أين الأكاسرة الجباررة الأولى»^(٣).

«كان المعنى: ولا تحدثن بالترج جاهلية في الإسلام تتشبهن بها بأهل جاهلية الكفر»^(٤).

ثم «أمرهن أمراً خاصاً بالصلوة والزكوة»^(٥)، ثم جاء به عاماً في جميع الطاعات «وأطعنَ اللهَ وَرَسُولَهُ»؛ لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات، من اعتنى بهما حق اعتنائه جرتاه إلى ما وراءهما.

ثم يبين أنه إنما نهاهن وأمرهن ووعظهن؛ لثلا يقارف أهل بيته رسول الله صلى الله عليه وسلم المائت، ولি�تصوّنوا عنها بالتقوى، واستعار للذنوب: الرجس، وللتقوى: الطهر؛ لأن عرض المفتر لل McBقات يتلوّث بها ويتدنس، كما يتلوّث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعرض معها نقى مصون كالثوب الظاهر.

«إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهَبَ عَنْكُمُ الْرِّجْسَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا» وفي هذه

«ثم إنه تعالى بين جهلهم بأن حكم عنهم أنهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جواباً له فقال: **﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمٍ إِلَّا أَنْ كَالُوا أَخْرَجُوا مَا لَمْ يُطْرِقُ مِنْ قَرِيبَكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾**» [النحل: ٥٦]»^(١).

«سبحان الله! متى كان الظهر ذبباً وجريمة تستوجب أن يخرج صاحبها من بلدة؟ إنها نغمة نسمعها دائمًا من أهل الباطل في كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق، ويسعون لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم.

ومن عدل الله تعالى أن يظهر في منطقمهم دليل إدانتهم ونبيط طباعهم، فكلمة **«يَتَطَهَّرُونَ**» التي نطقوا بها تعني: أنهم أنفسهم أنجاس تزعجهم الطهارة، وما أحلى الله من الطبيات، وكأن الله تعالى يجعل في كلامهم منافذ لإدانتهم، وليحكموا بها على أنفسهم»^(٢).

ثالثاً: **«وَقَرَنَ فِي يُوتَكَنْ وَلَا تَبَرَّجْ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقْمَنَ الْصَّلَاةَ وَمَاءِنَ الْرَّسْكَوَةَ وَأَطْعَنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهَبَ عَنْكُمُ الْرِّجْسَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا»** [الأحزاب: ٣٣].

«وقوله تعالى: **«الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**» فيه وجهان:

(١) مفاتيح الغيب، الرازى / ٢٥ / ١٦٧.

(٤) الكشاف، الزمخشري / ٣ / ٥٣٧.

(١) مفاتيح الغيب، الرازى / ٢٤ / ٥٦٢.

(٢) تفسير الشعراوى / ١٧ / ١٠٨٠٦.

من صور الجهالة

عرض القرآن الكريم صوراً للجهالة،
تناولها بالبيان فيما يأتي:

أولاً: الوقوع في المعصية:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَتَوْبَةُ عَلَى اللَّهِ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَشْوَأَ
بِمَهْلَقٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ
قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

والسوء: «هو العمل القبيح الذي يسوء
فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة»^(٢).

قال ابن رجب: «إِنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى اللَّهَ
فَهُوَ جَاهِلٌ، وَكُلَّ مَنْ أطَاعَهُ فَهُوَ عَالِمٌ، وَبِيَانِهِ
مِنْ وَجْهِيْنِ:

أحد هما: أَنَّ مَنْ كَانَ عَالِمًا بِاللَّهِ تَعَالَى
وَعَظَمَتْهُ وَكَبِيرَيَاهُ وَجَلَالَهُ، فَإِنَّهُ يَهَا به
وَيَخْشَاهُ، فَلَا يَقْعُدُ مِنْهُ -مَعَ اسْتَحْضَارِ ذَلِكِ-
عَصْبَيَانَهُ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ تَفَكَّرَ النَّاسُ
فِي عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَا عَصَوهُ، وَقَالَ آخَرُ:
كَفَى بِعَخْشِيَّةِ اللَّهِ عِلْمًا، وَكَفَى بِالْأَغْتِرَارِ بِاللَّهِ
جَهَلًا.

والثاني: أَنَّ مَنْ أَتَى الْمُعْصِيَةَ عَلَى الطَّاعَةِ
فَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ جَهَلَهُ، وَظَنَّهُ أَنَّهَا تَنْفَعُهُ
عاجِلاً باسْتِعْجَالٍ لِذَلِكَهُ، إِنْ كَانَ عِنْدَهُ
إِيمَانٌ فَهُوَ يَرْجُو التَّخْلُصَ مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهَا
بِالتَّوْبَةِ فِي آخِرِ عُمُورِهِ، وَهَذَا جَهَلٌ مَحْضٌ!

الاستعارة ما ينفر أولى الألباب عما كرهه
الله لعباده ونهاه عنهم، ويرغبهم فيما رضيه
لهم وأمرهم به»^(١).

^(١) تفسير المراغي ٤ / ٢٠٧.

^(٢) المصدر السابق.

وَاصْلَحَ فَإِنَّمَا عَفْوٌ رَّحِيمٌ ﴿الأنعام: ٥٤﴾ .
وقوله سبحانه: **شَرِيكَ لِلَّذِيْتِ**
عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَلٍ ثم تابوا من بعد ذلك
وَاصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿الحل: ١١٩﴾ .

فإنه يتوجه إلى الإثم والخزي، ويفوته عز التقوى وثوابها ولذة الطاعة، وقد يتمكن من التوبة بعد ذلك، وقد يعجله الموت بغتة، فهو كجائع أكل طعاماً مسموماً لدفع جوعه الحاضر، ورجا أن يتخلص من ضرره بشرب الدرياق بعده، وهذا لا يفعله إلا جاهل^(١).

ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه بالجهل وعدم العلم، «قال أبو العالية: سأل أصحاب محمد عن هذه الآية:
إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِيْتِ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَلٍ...» فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومنه قول ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاعتراض بالله جهلاً! وقيل للشعبي: أيها العالم! فقال: العالم من يخشى الله!

وقد قال تعالى: **إِنَّمَا يَخْفَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمُوا** ﴿فاطر: ٢٨﴾^(٢).

«وَقَيلَ: مَعْنَى الْجَهَالَةِ أَنْ يَأْتِيَ الْإِنْسَانُ بِالذَّنْبِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ ذَنْبٌ، لَكِنَّهُ يَجْهَلُ عَقُوبَتِهِ»^(٣).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: **وَإِذَا جَاءَكُمُ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِمَا يَأْتِيُنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّمَا مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَلٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِنَّ**

(١) رواي التفسير. ابن رجب الحنبلي / ١ / ٢٩٧.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية / ٧ / ٥٣٩.

(٣) لباب التأويل، الخازن / ١ / ٣٥٥.

ثانياً: عدم التثبت في الأخبار:

وَتَكَبَّلُوا إِذْنَاهُمْ مَأْمُونًا إِنَّ جَاهَلَ كُفَّارِيْسِقٍ بِمَا فَتَبَيَّنَوا
أَنْ تُعَيِّنُوا قَوْمًا بِجَهَلٍ فَتَصِّلُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ ﴿الحجرات: ٦﴾ .

«والجهل: فوق الخطأ؛ لأن المجتهد إذا أخطأ لا يسمى جاهلاً، والذي يبني الحكم على قول الفاسق إن لم يصب جهل، فلا يكون البناء على قوله جائزًا»^(٤).

قال ابن عاشور: «والجهالة: تطلق بمعنى ضد العلم، وتطلق بمعنى ضد الحلم مثل قوله^(٥):

بجهل كجهل السيف

فإن كان الأول: فالباء للملابسة، وهو ظرف مستقر في موضع الحال، أي: متلبسين أتمم بعدم العلم بالواقع لتصديقكم الكاذب، ومتتعلق **تُعَيِّنُوا** على هذا الوجه محذوف دل عليه السياق سابقاً ولاحقاً، أي: أن تصيبوهم بضر، وأكثر إطلاق الإصابة على

(٤) مفاتيح الغيب، الرازى / ٢٨ / ٩٩.

(٥) الشاهد من بيت لابن الرومي، تمامه:

بجهل كجهل السيف والسيف منتضاً

وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

انظر: الصناعتين. للعسكرىي ص ٤٢٤.

لِيُصَالُ الضرُّ.

وَعَلَى الإِطْلَاقِ الثَّانِيِّ: الْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، أَيْ: أَنْ تَصِيبُوا قَوْمًا بِفَعْلٍ مِّنْ أَثْرِ الْجِهَلَةِ، أَيْ: بِفَعْلٍ مِّنَ الشَّدَّةِ وَالْإِضْرَارِ»^(١).

علاج الجهالة

تحدث القرآن الكريم عن علاج الجهالة، وهذا ما سوف نبيّنه فيما يأتي:

أولاً: التوبّة:

من رحمة الله تعالى أنه (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء)^(٢)؛ لعلم الله سبحانه بضعف هذا الإنسان من كل جهة - كما سبق -، وداء الجهالة التي معناها: الواقع في الذنب عن علم أو غير علم، جعل الله تعالى له علاجاً ناجعاً، وهذا العلاج مكون من أمرتين اثنتين، أولهما: التوبّة الصادقة لله تعالى.

قال الله عز وجل: ﴿تَمَّ إِذَنَ رَبِّكَ لِلَّذِينَ عَلِمُوا أَشْوَأَ بِعْهَدِهِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ [النحل: ١١٩].

والجهالة هنا إما:

❖ عدم العلم بحريم ذلك، وسبب عدم العلم «عدم أسبابه: من النظر التام، والاستماع التام لأيات الحق وأعلامه، وسبب عدم النظر والاستماع: إما عدم المقتضي فيكون عدماً محضاً، وإما وجود مانع من الكبر أو الحسد في

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم ٥٣٥٤.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦ / ٢٣٢.

كفارات ذنوبهم^(۵).

وعند هاتين الآيتين: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى الْمُتَوَلِّتِ وَالْأَرْضِ وَالْجَبَالِ فَأَبْيَكَ أَنْ يَعْصِمَنَا وَأَشْفَقَنَ مِنْهَا وَجَلَّهَا إِلَيْنَا إِنَّهُ كَانَ ظُلُومًا جَهُولًا﴾^(۶) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُتَوَلِّتِينَ وَالْمُنْفَقِدَتِينَ وَالشَّرِيكَتِينَ وَالشَّرِيكَتِينَ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾^(۷) [الأحزاب: ۷۲، ۷۳].

يلفت شيخ الإسلام رحمة الله الانتباه لنكتة قيمة فيقول: «وذكر التوبية لعلمه سبحانه وتعالى أنه لابد لكل إنسان من أن يكون فيه جهل وظلم، ثم يتوب الله على من يشاء، فلا يزال العبد المؤمن دائماً يتبعن له من الحق ما كان جاهلاً به، ويرجع عن عمل كان ظالماً فيه، وأدناه ظلمه لنفسه، كما قال تعالى: ﴿الَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [آل عمران: ۱۳۵] [البقرة: ۲۵۷]»^(۸)

ثانيًا: الإصلاح:

عطف الله سبحانه وتعالى الإصلاح على التوبية في ثمانية آيات من القرآن الكريم، منها الآية التي ذكرت في العلاج الأول: ﴿شَهِدَ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشَّوَّمَ بِمَهْدَلَهُمْ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحل: ۱۱۹].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ

(۵) تفسير ابن رجب الحنبلي / ۱ . ۵۶۴.

(۶) مجموع فتاوى ابن تيمية / ۳ / ۳۴۸.

النفس﴾^(۹) ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُتَّالِ فَحُورٍ﴾

[الحادي: ۲۳]»^(۱۰).

﴿وَإِمَّا بِجَهَالَةٍ بِعَاقِبَةٍ مَا تَجْنِي عَلَيْهِ، وَلَوْ كَانَ مَتَعَمِّدًا لِلذَّنْبِ، فَإِنَّهُ لَابْدَ أَنْ يَنْقُصَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَقَتْ مُفَارَقَةِ الذَّنْبِ، فَإِذَا تَابَ وَأَصْلَحَ بِأَنْ تَرْكَ الذَّنْبِ، وَنَدَمَ عَلَيْهِ، وَأَصْلَحَ أَعْمَالَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَهُ وَيَرْحَمُهُ وَيَتَقْبَلُ تُوبَتِهِ وَيَعِدُهُ إِلَى حَالَتِهِ الْأَوَّلِيِّ أَوْ أَعْلَى مِنْهَا﴾^(۱۱).

«والتوبية: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدام الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه»^(۱۲).
فتح باب التوبية من أعظم نعم الله تعالى على عباده، فله الحمد سبحانه.

وعند قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفِرُوا إِلَيْهِمْ وَمَنْ يَعْفُرُ الذَّنْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ۱۳۵] الآية، يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه قوله: «هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها»^(۱۳).

وقال ابن سيرين: «أعطانا الله عز وجل هذه الآية مكان ما جعل لبني إسرائيل في

(۱) مجموع الفتاوى، ابن تيمية / ۱۴ / ۲۲۳.

(۲) تيسير الكرييم الرحمن، السعدي ص ۴۵۱.

(۳) المحرر الوجيز، ابن عطية / ۲ / ۲۹۷.

(۴) انظر: الترغيب والترهيب، قوام السنة / ۱ / ۱۷۱، رقم ۲۱۹.

الصلاح في الكون، وهكذا نضمن لا يجيء التائب إلى الشيء فيفسده؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحاً، لن يفسد الشيء الصالح.

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيماني ساعة يذكرون الذنب أو الجريمة التي اقترفوها بالنسبة لدينهم، يحاولون أن يجدوا ويسارعوا في أمر صالح حتى يجبر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة»^(٤).

ذَلِكَ وَاصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ [النور: ٥].
ومنها كذلك: **فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا**
فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا [النساء: ١٦].

ولا شك أن هذا التكرار لهذا العطف يدعو المسلم للتدبّر في سر ومعنى هذا العطف.

قال الألوسي: «**وَاصْلَحُوا**»: أي: أصلحوا أعمالهم أو دخلوا في الصالح، وفسر بعضهم الإصلاح بالاستقامة على التوبية^(١).

وقال ابن كثير: «أي: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي، وأقبلوا على فعل الطاعات»^(٢).

وقال شيخ الإسلام عن آدم عليه السلام: «فَانْ قِيلَ: وَهُوَ قَدْ تَابَ فَلِمَذَا بَعْدَ التُّوبَةِ أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ؟ قِيلَ: التُّوبَةُ قَدْ يَكُونُ مِنْ تَامَّهَا عَمَلٌ صَالِحٌ يَعْمَلُهُ؛ فَيَتَلَقَّ بَعْدَ التُّوبَةِ لِيَنْظُرَ دَوْمًا طَاعَتَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **إِلَّا**
الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَاصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ» [آل عمران: ٨٩]^(٣).

وهنا لطيفة يسعفنا بها الشعراوي رحمه الله فيقول: «ومعنى كلمة (أصلح) أنه زاد شيئاً صالحاً على صلاحة، والكون ليس فيه شيء فاسد - اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختياري من الإنسان - وعلى التائب أن يزيد

(١) روح المعاني، الألوسي، ٧ / ٤٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤ / ٦١٠.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٨ / ٣٢٢.

(٤) تفسير الشعراوي / ٣ / ١٦٥٥.

التعامل مع الجاهلين

الإتيان به، وأن وجوده خير من عدمه؛ وذلك لأن في هذا القسم لو اقتصر على الأخذ بالغفو ولم يأمر بالعرف ولم يكشف عنحقيقة الحال، لكان ذلك سعيًا في تغيير الدين وإبطال الحق وأنه لا يجوز، ثم إنه إذا أمر بالعرف ورغم فيه ونهى عن المنكر ونفر عنه، فربما أقدم بعض الجاهلين على السفاهة والإيذاء! فلهذا السبب قال تعالى في آخر الآية: **﴿وَأَعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٩].

وقال في آية أخرى: **﴿وَلَا مَرْءًا يَأْتُكُمْ بِالْغَوْرِ مَرْءًا كَرَامًا﴾** [الفرقان: ٧٢].
وقال: **﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾** [المؤمنون: ٣].

وقال في صفة أهل الجنة: **﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا نَوْأِلًا ثَانِيًّا﴾** [الواقعة: ٢٥].
وفي قوله: **﴿وَأَعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** قولان:

أحدهما: أنهم المشركون، أمر بالإعراض عنهم، ثم نسخ ذلك بآية السيف.
والثاني: أنه عام فيمن جهل، أمر بصيانة النفس عن مقابلتهم على سفهم، وإن وجوب عليه الإنكار عليهم.

وهذه الآية عند الأئمرين كلها محكمة، وعند بعضهم أن وسطها محكم وطرفيها

(١) مفاتيح الغيب، الرازبي /١٥٤٣.

أرشد القرآن الكريم إلى وسائل التعامل مع الجاهلين؛ ليسلكها المؤمنون مع الجاهلين، وهذه الوسائل ذكرها فيما يأتي:

أولاً: الإعراض:

قال الله تعالى لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام: **﴿خُذُ الْعُقُوْبَ وَأَمْسِكْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾** [الأعراف: ١٩٩].

اعلم أن «الحقوق التي تستوفى من الناس وتؤخذ منهم، إما أن يجوز إدخال المساعدة والمسامحة فيها، وإما أن لا يجوز».

أما القسم الأول: فهو المراد بقوله: **﴿خُذُ الْعُقُوْبَ﴾** ويدخل فيه ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية، ويدخل فيه أيضًا التخلق مع الناس بالخلق الطيب، وترك الغلطة والفتاظة، كما قال تعالى: **﴿كُنْتَ فَطَّا غَلِيظَ الْقُلُوبِ لَأَنَقَصُوا مِنْ حَوْلَكَ﴾** [آل عمران: ١٥٩].

ومن هذا الباب أن يدعو الخلق إلى الدين الحق بالرفق واللطف، كما قال تعالى: **﴿وَحَدِّلْهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحَسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥].

وأما القسم الثاني: وهو الذي لا يجوز دخول المساعدة والمسامحة فيه، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف، والعرف، والعارفة، والمعروف: هو كل أمر عرف أنه لابد من

«وَاللَّهُ مَا جَاوزَهَا عُمُرٌ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ،
وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ»^(٣).

ثانيًا: الخطاب بالحسنى:

لم يكتفى الحق سبحانه وتعالى في أمر عباده الأتقياء بالإعراض عن الجاهلين فحسب، بل وحثهم على أن يقولوا لهم قولًا حسناً، ويردوا عليهم ردًا جميلاً، فقال تعالى حاكياً حال عباده مع أهل الجهالة: «وَعَبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَسْتَوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هُنَّا وَلَا يَخَاطِبُهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَّمًا»^(٤) [الفرقان: ٦٣].

«أي: صوابًا من القول وسدادًا.

وقال الحسن البصري رحمه الله: هذا دأبهم في النهار، فإذا دخل الليل كانوا كما وصف الله في آخر الآية: «وَالَّذِينَ يَسْتَوْنَ لَرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقَيْمًا»^(٥).

«وقال مجاهد: معنى **«سَلَّمًا»** قولًا سديداً، أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين فقالوا على هذا التأويل عامل في قوله **«سَلَّمًا»** على طريقة التحويين، وذلك أنه بمعنى قولًا، وهذه الآية كانت قبل آية السيف فنسخ منها ما يختص الكفارة، وبقي أدبها في المسلمين إلى يوم

منسوخان على ما بيننا»^(٦).

قال ابن حجرير: «وذلك وإن كان أمراً من الله نبيه؛ فإنه تأديب منه عز ذكره لخلقه باحتمال من ظلمهم أو اعتدى عليهم، لا بالإعراض عن جهل الواجب عليه من حق الله، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب!»^(٧).

وقد ورد في البخاري مثال تطبيق لهذه الآية مع الخليفة الثاني رضي الله عنه عمر بن الخطاب، يحكى ابن عباس رضي الله عنهما، فيقول: (قدم عبيدة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من التفر الذين يدنهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً)، فقال عبيدة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: **«خُذِ الْعُنُوتَ وَأَمِّهِ إِلَّا عِرْفٌ وَأَغْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»** [الأعراف: ١٩٩]. وإن هذا من الجاهلين،

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، ٦ / ٦٠، رقم ٤٦٤٢.
(٤) انظر: لطائف الإشارات، التستري ١ / ١١٤.

(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ٢ / ١٨١.

(٦) جامع البيان، الطبراني ١٣ / ٣٣٢.

القيامة»^(١).

قال الشعراوي: «والجاهل: هو السفيه الذي لا يزن الكلام، ولا يضع الكلمة في موضعها، ولا يدرك مقاييس الأمور، لا في الخلق ولا في الأدب.

وبسبق أن فرقنا بين الجاهل والأمي: الأمي خالي الذهن، ليس عنده معلومة يؤمن بها، وهذا من السهل إقناعه بالصواب. أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع؛ لذلك يأخذ منك مجهدًا في إقناعه؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تخرج من ذهنه الخطأ، ثم تدخل في قلبه الصواب.

والمعنى: إذا خطابك الجاهل، فحذار أن تكون مثله في الرد عليه فتسفه عليه كما سفه عليك، بل قرعه بأدب وقل: «**مسَلَّمًا**»^(٢). لتشعره بالفرق بينكم».

م الموضوعات ذات صلة:

الأمية، العلم، الفقه

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية /٤٢١٨.

(٢) تفسير الشعراوي /١٧٥٠٢.

